

شعوب القوقاز

الأستاذ برهان الدين الداغستاني

—♦♦♦—

(مهداة إلى الأستاذ محمد أسامة غلبية تقياً على ما نشره في العدد ٢٨٤ ص ٢٩٢ من الرسالة الغراء)

سيدى الأستاذ : قرأت — وأنا على أهبة السفر إلى الإسكندرية في طريقى إلى دمشق ، ما كتبت تحت عنوان : « نصوص تاريخية في الرد على تعقيب » فلم يكن في الوقت متسع ، ولا في البال فراغ ، فلم أستطع الكتابة يومئذ ، ثم تلاحت المشاغل ، وتواردت الواجبات ، واتصلت حتى استطعت أخيراً أن أختلس بعض الفراغ لأبث إليكم بهذه الملاحظات التى أرجو أن تلقى لديكم بعض العناية والرعاية والصدور الرحب . إنكم نقلتم عن تاريخ الجراكسة للأستاذ محمد بك فكرى ما نقله عن المؤرخ الفرنسى « من لامار » من أن الكرج ، والجركس ، واللازكى والحجبي فروع أصل واحد ، ثم نقلتم عنه أيضاً قوله : « دلت التديقات العلمية والتاريخية على أن الجركس والكرج ينتميان إلى (جد) مشترك .

وأحب أن أوجه نظركم الكريم إلى أن موضع النزاع بينى وبينكم — إن كان هناك نزاع — هو أن يكون الكرج ، والجركس ، واللازكى ، والحجبي شعباً واحداً ، لا أن يكونوا (فروع) أصل واحد ، أو منتمين إلى (جد) مشترك ! كيف ونحن — معشر المؤمنين بوحى السماء — مازلنا نفتقد أن الشعوب كلها تنتمى إلى جد مشترك ؟ أما من هو هذا الجد المشترك ، أو الأصل الذى تفرعت عنه هذه الفروع وفى أى عصر كان ؟ فهذا ما لا أحب أن أعلق عليه أو أتق عليه بالأل . ويبدو لى أنك شعرت بينك وبين نفسك أن ما نقلته عن « من لامار » لا يجدى عليك فى دعواك فتبلاً ، ولا يبنى عنك شيئاً ، فنقلت ما جاء فى كتاب الجراكسة لمحمد بك فكرى (ص ١٦) : « أن لفظ الجركس عنوان عام يشمل القبائل الأصلية القوقازية ، فيكون الجركس يؤدى مؤدى القوقاس » فن أن الأستاذ محمد بك فكرى هذا ، وما سنده من التاريخ القديم ؟ .

وكيف استبحتم نقل مثل هذه الدعوى الخيالية من أى سند فى معرض التدايل ؟ .

وهل هذه إلا الصادرة المروفة عند الجدلين ١٢ .

على أن من الطريف أن محمد بك فكرى ادعى فى تاريخ الجراكسة (ص ١٦) « أن لفظ الجركس عنوان عام يشمل القبائل الأصلية القوقازية » ثم رتب على هذه الدعوى هذه النتيجة : « فيكون الجركس يؤدى مؤدى القوقاس » . قبل أن يدلل عليها ، ثم نقل فى (ص ١٢) عن « من لامار » أن الكرج ، والجركس ، واللازكى ، والحجبي ، (فروع) أصل واحد ، وفى (ص ٢٢) قال : « دلت التديقات العلمية والتاريخية على أن الجركس والكرج ينتميان إلى جد مشترك » فهل هذا الذى نقله فى (ص ١٢ ، و ص ١٦ ص ٢٢) يتفق مع ما ادعاه وقرره فى (ص ١٦) ؟ .

ويظهر أنكم شعرتم باضطراب موقف صاحب تاريخ الجراكسة ، فغيرتم ترتيبه ، فنقلتم ما كتبه فى (ص ١٢ ، و ص ١٦ ص ٢٢) أولاً ، ثم نقلتم ما كتبه فى (ص ١٦) أخيراً . ولكن هل هذا التقديم ، وذلك التأخير غيرا من أصل الموضوع شيئاً ؟ . والظاهر أنك شعرت بهذا الاضطراب فى نصوص كتاب تاريخ الجراكسة وأنها لا تؤدى إلى ما قصدت فأوردت أسطورة — وإن شئت سمها أحجية — « أركس ، وآس ، وتركس ، وكسا » نقلها عن « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » للبدر العيسى .

ولهذه الأسطورة عندى تاريخ قديم ، وحديث عجيب ، ما كنت أحب أن أعرض له لولا أنكم أوردتموها واتقين بها ممتدنين عليها ، فرحين بها ، مقتبطين لها ، فقد حدثنى بها من عهد بعيد أستاذ جليل القدر ، كريم المنزلة ، أعزه واحترمه واحفظ له فى نفسى تقديراً واحتراماً ، وإكباراً وإجلالاً ، ولا حاجة الآن إلى ذكر اسمه الكريم ، وإن كنت أعتقد أنه هو الذى أخبركم بأسطورة البدر العيسى أيضاً . فصارحتهم برأى فى قيمة هذه الرواية التى لم يبرفها أحد قبل عصر البدر العيسى ، والننى لم تظهر إلا فى ظل سلطان المالك وفى مقرر دولتهم ، وسركز عزم فى مصر ، وأذ كر أنى قلت له يومئذ : إنها أشبه

أسطورة البدر العيني وشرحها وتوجيهها كما نشتهى قلت :
« وانبع البدر العيني المصطلح القديم ، وهو إطلاق الجركس
على القبائل الأربع التي في جوانب جبل القوقاز » .
دأى مصطلح قديم هذا الذي تشير إليه ؟ ومن الذي ذكره
وقال به قبل البدر العيني ؟ .

وأما تفسير كلمة « جركس » وادعاء أن أصلها الكركم
جهاركس . ومعناها في لغة الفرس الرجال الأربعة فإنه لا يهمننا
في الموضوع الذي نحن بصدده قليلاً أو كثيراً ؛ لأن هذه
الدعوى وهذا التخريج مهما قيل فيهما لا يزيدان ولا يرجحان
على عبارة سابقة لشرحه كلمة « الجركس » فقد زعم زاعمون
من قبل أن أصلها مركب من كلمتي « جرا » ، « كسا » وأن
الرحوم « كسا » كان من أشرف قريش ، فجنى جنابة وهرب
إلى القوقاز ، وأقام بها ، وعلى هذا يكون أصل الجرا كسة من
قريش ! .

هذا تعليق حاولت أن أجعله وجزئاً جهد الطاقة على ما دعوته
نصوماً تاريخية ، وما هي من التاريخ في شيء .

وبعد هذا أضغ بين يديكم بعض الأسماء التي كانت معروفة
في التاريخ القديم لسكان جبل القوقاز ، والتي أطلقها عليهم قدماء
المؤرخين . وأبدأ ذلك بأن المؤرخين العرب الأقدمين كالمهودي
وغيره كانوا يسمون جبال القوقاز بلاد القبيج أو جبال القبيج
لا جبال الجركس أو بلاد الجركس كما نص على ذلك المرحوم
شيخ العروبة أحمد زكي باشا في قاموس الجغرافيا القديمة . هذا
بالنسبة إلى منطقة القوقاز جملة .

وأما أسماء سكان البلاد تفصيلاً ، فإن سكان الجهات الشرقية
الشمالية من القوقاز - حيث مساكن الداغستان ، والحجب ،
وشروان الآن - كانوا يسمون في بعض الكتب القديمة ألبانيين
وكانت بلادهم تدعى ألبانيا . كما ذكر ذلك أيضاً المرحوم زكي باشا
في كتابه السابق .

وإن اسم الحجب كان معروفاً قديماً ، وكان يطلق على الشعب
السكن في الشمال من بلاد الداغستان حيث مساكن الحجب
إلى يومنا هذا .

كما أن اسم الأورا - وهم أسلاف اللوزكيين الحاليين من

بأسطورة أراجبية من الأمازيغ وضمت وضماً لإرضاء الساطان
وتزلفاً إلى أصحاب النفوذ . وإلا فكيف لم يطالع على هذه الرواية
- إن كان لها أصل - أحد من المؤرخين قبل البدر العيني ،
وخفيت عليهم جميعاً حتى أوحى بها إلى البدر العيني في الزمن
الأخير في عهد سولة الماهليك - وجاهم أو كاهم من الجراكسة
المنتشرين في القوقاز الشمالي الغربي - وساطانهم البيوط على
مصر والشرق ؟^(١)

كان هذا رأيي في رواية البدر العيني هذه من عدة أعوام ،
وأن الأيام لم زدنني إلا إيماناً ، واستمساكاً بهذا الرأي . فهي
رواية ولدت وترعرعت في ظل حكم الماهليك الجراكسة من غير
أن يكون لها سند من تاريخ ، أو مرجع تعتمد عليه .

ومن هذا القبيل ما شاع في كتب بعض المؤرخين الذين
عاشوا في عهد الماهليك واتصلوا بهم مثل ابن خلدون^(٢) من
إطلاقهم اسم جبال الشركس على جبال القوقاز أو تسميتهم
شعوب القوقاز جميعاً شراكسة فإنه اصطلاح طارىء حديث نشأ
في ظل سلطان الماهليك الشراكسة ، وانتشر في عهدهم .

وفي ظني أن هذه الرواية التي أوردها البدر العيني ، وهذا
الاصطلاح على تميم اسم الجركس على جميع القوقازيين ما هو إلا
من قبيل التزلف إلى السلطان الجركسي والتزلف إليه ، لأن
معظم هؤلاء الماهليك - أو كاهم - كان من أتباعهم من سواحل
البحر الأسود حيث مساكن قبائل الجراكسة . ومن هذا
القبيل أيضاً تلك الدعوى الطويلة العريضة التي كانت تزعم أن
الجراكسة من قريش . وألفت في يوم من الأيام لاثباتها
الرسائل ؟

على أن البدر العيني - حسب رواية الأستاذ - يبسط
كلامه بدءاً غير موفق إذ يقول : ومن الترك الجركس الخ .
فهل يسم الأستاذ مع البدر العيني أن الجركس من قبائل الترك ؟
ثم إنك - يا سيدي الأستاذ - بعد أن تفرغ من رواية

(١) ولد البدر العيني في عيذاب سنة ٧٦٢ هـ وأقام في حلب
ودمشق والقدس ومصر وكان من أخصاء الملك للزيد ، وسير الملك
الأشرف وولاه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٥٥ هـ .

(٢) ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ ولحق السلطان الظاهر برفوق
وتولى قضاء المالكية بالقاهرة ثم تولى بالقاهرة فجاء في سنة ٨٠٨ هـ .

الخاصة به ١. وكذلك كان صنيع مؤرخي الرومان واليونان ، فاسترايون يؤيد نظرية نيف وسبعين شعباً ، وهكذا بقيت هذه الأسطورة عالقة بالأذهان إلى عصور متأخرة جداً حتى جاء علم اللغات المعاصر ، وأعاد هذه القضية أهمية خاصة ، وبحت مسألة تمدد لغات القوقازيين بحثاً علمياً دقيقاً ، واستطاع أن يهدم تلك النظريات ، والآراء الشائنة المبنية على معلومات غير دقيقة ، ففي أواخر القرن السابع عشر الميلادي ابتداءً المالمان الألمان : « تليدن أسناد » و « بالاس » الأبحاث العلمية عن أصول اللغات القوقازية ، واستطاعا إرجاعها إلى الأصول الآرية :

- ١ - اللغة التتارية : وهي لغة الشعوب التركبية الأصل .
- ٢ - « اللازكية » : وهي لغة الداغستانيين .
- ٣ - « السكستينية » : وهي لغة الجرجانيين .
- ٤ - « السركسيانية » : وهي لغة الأديغة .
- ٥ - « الأوستينية » : وهي لغة الأوسيت من الشعوب الإيرانية القديمة .

٦ - اللغة الكرتفليانية : وهي لغة الكرجيين .
وأصبح هذا التقسيم للغات القوقازيين أساس علم اللغات القوقازية فيما بعد استند عليه علماء القرن التاسع عشر وامتدوه وفي القرن العشرين أكد المالمان : « الفونس دير » و « نيقولامار » نتائج أبحاث أسلافهما في تقسيم اللغات القوقازية ويرى عالم آخر من علماء القرن العشرين أن اللغات القوقازية يجب أن تقسم إلى فصائل أربع وهي :

- ١ - اللغة اللازكية : وهي لغة الداغستانيين .
 - ٢ - « الجرجانية » .
 - ٣ - « الكرتفليانية » : وهي لغة الكرج .
 - ٤ - « الإيهاسية » : وهي لغة قبائل الجركس .
- ويعد بعضهم لغة الداغستانيين ولغة الجرجان من فصيلة واحدة وبناء على نتائج هذه الأبحاث العلمية يمكن تقسيم شعوب القوقاز الشمالي إلى قسمين أساسيين :

- ١ - سكان القسم الغربي من القوقاز وهم : الأيهاسو ، والأوبنج ، والشبوغ ، الأبراخ ، القبرطاس ، الأبازة . وهي جميعاً قبائل جركسية .

الداغستانيين - كان معروفاً حول القرن الرابع الميلادي ، وقد أطلق على شعوب القوقاز الضاريين في الجانب الشرقي للقوقاز أسماء مختلفة مثل الخزر ، قوميق ، ألان . وهذا الاسم الأخير يظهر لي أنه اسم اللازكيين القديم ، فهو يطلق في الكتب القديمة على شعب مقيم في مساكن اللازكيين الحاليين ، وأن ظن بعض الكتاب أنه اسم الأوسيت . ذلك أن الأوسيت معروفون باسم الأوسيت من قديم ، ويسكنون في جهة تقع في الشمال في قلب منطقة الجبال على الشمال الغربي من مواقع اللازكيين .

هذا في القسم الشرقي من القوقاز ، أما في القسم الغربي منه فإن اسم الأديغة كان معروفاً من قديم ، وما زال يطلق على سكان الجزء الشمالي الغربي من القوقاز ، ويمكن اعتباره اسماً جامعاً لشتات قبائل الجركس المنتشرة في تلك الجهة مثل : أيهاسو ، الأوبنج ، الشبوغ ، الأبراخ ، القبرطاس ، الأبازة . مع ما بين قبيلة الأبازة وبين بقية قبائل الجركس من اختلاف في اللغة يتمذر معه التفاهم بين هؤلاء وأولئك .

هذه هي الأسماء التي كانت تطلق قديماً على سكان القوقاز الشمالي شرقيه وغربيه ، ثم ظهر فجأة اسم الجركس في العصور المتأخرة ، وصار يطلق على بعض - وأحياناً على كل - القبائل الساكنة في القوقاز الشمالي الغربي ، ثم انتشر هذا الاسم وصار يطلق - من غير تحقيق أو تدقيق - على جميع سكان القوقاز في عصر المماليك كما فعل البدر الميني ، ومال إليه ابن خلدون ، ثم شاع هذا الاستعمال في الشرق الأدنى في فترة أخرى من التاريخ على أثر تلك الهجرة الواسعة النطاق التي قام بها الجركس إلى الممالك المملوكية على أثر تغلب الروس عليهم واحتلالهم لبلادهم ولكن هذا كله لا يجعل هذا الإطلاق صحيحاً أو دقيقاً ، بل لا يمدوا أن يكون ضرباً من ضروب التساهل من الكتاب أو عدم وقوف على حقيقة الحال من تنوع الشعوب في تلك الأقطار الشاسعة ، واختلاف أصولها وتنوع أجناسها .

وإن الحديث عن شعوب القوقاز ، وكثرتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم حديث قديم طويل ، حتى كان المؤرخون القدماء من العرب يسمون القوقاز ببلاد الشعوب والجبال ، وكان زاعمهم يزعم أن في تلك البلاد نيفاً وسبعين شعباً لكل شعب لغته

السكرج والإيجرت والتسكركلى . وإذا كان بعض المحققين من علماء حاول عدم السكرج من الأمم الطورانية أو الآرية إلا أن الأدلة التي ساوقها لإثبات ذلك لا تمد كافية .

على أن بعض الأبحاث التي أجريت حول لغة السكرج تدل على أن السكرج مثل بقية أمم القوقاز لا يمتون بصلة إلى الآريين أو الطورانيين أو الساميين ، بل ينقلب على الظن أنهم بقايا أمم قديمة مفترضة كانت اجتازت هذه المناطق في أثناء هجراتها من آسيا إلى أوروبا ، ومن أوروبا إلى آسيا .

٤ - أمة الأوسيت ، وسوأآت الساكنون بالقرب من منابع نهر ترك .

هذه خلاصة وافية لما ذكره العلامة شمس الدين بك ساوى في قاموس الأعلام عن شعوب القوقاز ، ومنه وما قبله من بيانات وآراء للعلماء والمؤرخين الموثوق بآرائهم يتبين أن الداغستانيين والسكرج ، والجيجان ، والأوسيت ، والجركس أمم قاعة بذاتها لكل واحدة منها لغتها أو لغاتها الخاصة بها ، ولها كيانها المستقل . وعلى ذلك أرى أنى حين قلت في الرسالة (العدد ٧٨٣ ص ٧٧٠) : إن اللاز يمتون بصلة النسب أو القرابة إلى السكرج ، وأن السكرج غير الجركس لم أكن مجانباً للحقيقة ، ولم أكن أحاول تسيير التايخ حسب الهوى والفرض كما أردت أن تصورنى أمام قرائك ، بل كنت أقرر حقيقة علمية ثابتة لا سييل إلى إنكارها ، أو التحايل على طمسها .

وبعد : فإنى أشكرك - يا سيدى الأستاذ - جزيل الشكر على أن أنتحت لى هذه الفرصة للتحدث عن شعوب القوقاز بشئ من الإفاضة والتفصيل . والسلام عليك ورحمة الله .

برهان الدين الراجستانى

(دمشق)

٢ - سكان القسم الشرقى من القوقاز الشمالى وهم : الداغستان والجيجان . وإلى هذين القسمين الرئيسيين يمكن إرجاع بقية الشعوب والقبائل المنتشرة فى القوقاز مثل : قره جاى ، بالكار ، قومين ، نوقاس ، وهذه كلها من الفصيلة التركبية ، وأوسيت . وهى من الفصيلة الإيرانية ، والتي منها الفرس والكرد والأفغان .

هذا وقد سلك العلامة شمس الدين ساوى بك فى قاموس الأعلام مسلكاً آخر فى تقسيم شعوب القوقاز ، فهو يقسمهم أولاً إلى سكان أصليين وأقوام طورانيين ، وأمم آرية ، ثم يقسم السكان الأصليين فيقول :

أما سكان القوقاز الأصليون ، فهم أقوام وأجناس وشعوب كثيرة ، ويمكن إرجاعهم إلى هذه الأقسام الرئيسية :

١ - الجركس الذين يسكنون حوض نهر قوبان وبالقرب من منابع نهر ترك الغربية فى القسم الغربى الشمالى من القوقاز ، ويمكن أن يضم إليهم الأبازة^(١) الساكنون فى منحدرات سلسلة الجبال الغربية الجنوبية على القرب من سواحل البحر الأسود . والجيجان^(٢) الساكنون إلى الشمال من بلاد الداغستان .

٢ - سكان بلاد الداغستان الأصليون ، وهم اللزكيون الساكنون فى المناطق الشمالية الشرقية من جبال القوقاز ، وهؤلاء اللزكيون من سكان القوقاز الأصليين ، كانوا يسكنون هذه البقعة من أقدم المصور حتى إن « هردوت » ذكرهم بهذا الاسم فى تاريخه القدى كتب فى حدود سنة ٤٥٠ قبل الميلاد .

ويحتمل أن يكون لهؤلاء اللزكيين صلات نسب وقرابة مع السكرج والجركس واللاز وغيرهم من أمم القوقاز الأصليين ، غير أن إثبات هذه الصلة بين هؤلاء الأقوام يفتقر إلى ما يثبتته ، فهو مجرد احتمال لا دليل عليه .

٣ - سكان المنطقة الجنوبية من سلسلة الجبال أمثال

(١) يلاحظ صاحب الأعلام أن بين لغة الأبازة وبين لغة بقية الجراكسة اختلافاً كبيراً يصدر عنه التمام بين هؤلاء وبين أوتك . ولذلك يتردد فى عد الأبازة من الجركس .

(٢) هذا مخالف لما سبق من عد الجيجان قسماً قائماً بذاته ، واعتبارهم مع الداغستانيين وينبئ ملاحظة عدم وجود أية صلة بين لغة الجيجان وبين لغة الجركس .

اطلب كتاب

دفاع عن البلاغة